تشخيص أزمة القيم المعاصرة

د. عبد الرحمن معزيز
عضو المكتب التنفيذي للرابطة المحمدية للعلماء

تمهيد

يعيش العالم في زمننا المعاصر، حالة من التوتر والعنف والتصادم، والقلق والاكتئاب، وعدم الاستقرار على الرغم من التقدم التكنولوجي الهائل في ميدان الاتصال والتواصل، حيث تشهد القيم الإنسانية تحولات سريعة، في زمن ما فتئت فيه المميزات الداخلية للهويات الجماعية تهيج وتشتد إلى درجة اللاتسامح، بل أحيانا إلى حد العنف والقتل. وإذا كانت تلك الحالة ظاهرة في الدول النامية حيث الفقر والتخلف والتفكك، فإن الدول التي تأخذ بزمام الأمر وتقود المسيرة الحضارية المعاصرة ليست ببعيدة من أجواء هذا الاضطراب.

فإذا نظرنا إلى المجتمع الأمريكي، نجد هذا الأخير يعيش واقعا مؤسفا وحالة خاصة لم يكن يتوقعها، واقع غارق في مستنقع من الفساد والإجرام والانحلال الخلقي... وإذا نظرنا إلى المجتمع الأوروبي بصفة عامة يمكن القول إن أزمة القيم تحتل فيه موقعا مركزيا. لماذا؟ لأن الحضارة الغربية المهيمنة أعلت من شأن البعد المادي الحيواني في الإنسان واستبعدت البعد الروحي والمعنوي، فهي اقتفت بأثر **فاوست** الذي باع روحه **لميفسطوفيليس** أمير الشياطين مقابل المادة واللذة، ومن صلب هذه الحضارة تناسلت أغلب **الفكرولوجيات** التي انتهجت نفس الطريق، واستبعدت القيم والأخلاق والمثل العليا التي تنشدها الإنسانية. وخير مثال لذلك ما حدث لمسلمي البوسنة والهرسك من قتل جماعي، وسفك الدماء، واغتصاب النساء، ومحاولة القضاء على الهوية الإسلامية لتلك الأمة أمام سلبية المنظمات والهيئات العالمية وعدم تحريك الضمير العالمي اتجاه تلك القضية، إنما

يدل في مجمله على انهيار القيم والأخلاقيات داخل تلك المجتمعات[1].

وإذا انتقلنا إلى المجتمع العربي والإسلامي نجد أنهما غير بعيدين عن تلك الأزمة وإن كانا أفضل بكثير من الواقع المؤلم للدول والمجتمعات التي تدعي قيادتها للمسيرة الحضارية.

فقد بدأت تظهر تلك الأزمة في عالمنا العربي الإسلامي، في صورة الانحلال الخلقي المتمثل في انتشار الجريمة والفساد، وضعف الضمير الإنساني، وتغليب المصلحة الخاصة وتمكن القوي واستنزافه لخيرات الضعيف، حيث اهتزت القيم واضطربت المعايير الاجتماعية والأخلاقية، والتمرد على تعاليم الدين الإسلامي ومحاولة البعض ممن استهوتهم الحياة المادية من إلصاق التهم بالعقيدة واتهامها بالرجعية.

وهذا السلوك يمكن أن يؤدي إلى أزمة قيمية تهدم النظام الاجتماعي، ويسبب في إثارة القلاقل وهدم سيادة القانون، فيتعذر على المرء أن يتمسك بقيمه والعمل بوحي منها، فهناك أزمة خلقية يعاني منها المجتمع العربي الإسلامي، تتمثل في عدم التمييز بين ما هو سليم وما هو سقيم، وعدم معرفة ما يتعين على الناس أن يتمسكوا به من مبادئ وقيم، ومن هنا بدأت مشكلة القيم تفرض نفسها، يكاد الاهتمام بها يكون من أهم المشكلات التي تواجه المجتمعات العربية المعاصرة.

كما يمكن القول إن الكثير من مشكلاتنا الحالية هي مشكلات أخلاقية تسببت في أزمة قيمية تهدد تلك المجتمعات، وما نشهده اليوم من أزمات في جميع المجالات ما هو إلا ثمرة من ثمار أزمة القيم.

ومن هنا يتضح أن سبب انهيار العالم قيميا وخلقيا واقتصاديا هي عولمة البؤس، وعولمة الاستهلاك وآثارها المتوحشة على أخلاق وسلوكيات الإنسان، وأن سبيل إنقاذ البشرية من هذا الظلم المتسلط، هي القيم الإسلامية الكفيلة وحدها بإخراج الإنسان المعاصر من هذه الأزمة الأخلاقية الفظيعة التي يعيش فيها، وذلك من خلال مفاهيم التزكية وابتغاء التعارف، والتسامح والتضامن، والتكافل والتعاون على البر والتقوى كقيم خلقية، وربنا عز وجل يقول في محكم كتابه: ﴿إن هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم ويبشر المومنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ (الإسراء: 9).

ولبيان أحقية القيم الإسلامية للانتصاب كخيار لإنقاذ الإنسان المعاصر من هوة التوحش

1. محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، بحث نشر بموقع مغرس، بتاريخ 08 يونيو 2004.

المادي، سنناقش المحاور التالية:

أولا: في تبسيط مفهوم القيم

قبل الخوض في تعريف مفهوم القيم كمنظومة أو فلسفة أو علم، نود بداية أننا لا نقصد بهذا التفسير أو الحديث عن القيم في مفهومها العام، أو في دلالاتها التي تربطها بالماديات، كالثمن والنفع وما إليهما مما يتعلق بالسيولات أو المعاملات التجارية أو المالية من مضاربات ومبادلات مصلحية، ولكن نقصد تناولها في بعدها الخلقي بكل ما يشكل هذا البعد من عناصر تتدخل لتنتج صفات شخصية تجمل الفرد والجماعة وتحمد لهما حين يتحليان بها ويدركان سمو أو رفعة في ذاتهما، وإكبارا وتقديرا عند الغير[1].

فمسألة القيم تعد قضية من القضايا المعقدة من منظور الإسلام، والتي لا تزال موضع خلاف يشوبه الكثير من الغموض والإبهام، ومن أكثرها إحاطة بميادين الحياة ومجالاتها المختلفة، فالقيمة عند علماء الاقتصاد تختلف عن القيمة عند الفلاسفة، وعن علم النفس، وعن علم التربية، بل إن القيمة تختلف داخل الشخص الواحد، فلقد استخدمت بمعان كثيرة من المذاهب الاقتصادية المختلفة ومازالت محل خلافات أساسية بين المدارس الفلسفية، سواء في الماضي أو الحاضر، الأمر الذي أدى إلى اختلاف الرؤيا لمعنى القيمة تبعا لاختلاف تناولها داخل الفروع المختلفة، وسوف يرتكز الاهتمام في هذا المطلب على محاولة تحديد القيمة، والتمييز بينهما وبين غيرها من المفاهيم المرتبطة بها، حيث يعتبر تحديد المصطلح أمرا هاما في هذا البحث.

1. مفهوم القيمة

لا نعرف أن العرب استخدموا كلمة القيم في تراثنا لا مفردا ولا جمعا بالمعنى المتداول في عصرنا، وأحسبها ترجمة حرفية لكلمة Value باللغة الإنجليزية و Valeur باللغة الفرنسية، وقد قالوا باللغة الإنجليزية Value System فقلنا نظام القيم أو "منظومة القيم" وقالوا اكسيولوجيا Axiology نسبة إلى الكلمة اليونانية "اكسيوس" ومعناها الثمين وذلك لعناية هذه الفلسفة أو هذا العلم بعملية التقييم أو التقدير Estimation وقالوا Value Judgement فقلنا: "حكم اعتباري أو شخصي".

---

1. عباس الجراري، مفهوم القيم وفلسفتها وإشكالية الواقع والمثال، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2001م، ص125.

وتفننوا في استخدام المصطلحات فقلنا مثل قولهم، وربما كانت اللفظة العربية المستعملة عند العرب في أساليبهم وأشعارهم وأقلامهم لتدل على هذا المعنى هي الخلق أو الأخلاق بمفهومها الحسن والسيئ ففي كتاب الله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: 4). ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خلق الأولين. وما نحن بمعذبين﴾ (الشعراء: 136-138).

وإذا عدنا إلى لفظ قيمة وجدناه يدل في أصل وضعه اللغوي على الاعتدال والاستواء وبلوغ الغاية، فهي مشتقة من الفعل "قام" وهو نقيض الجلوس أو القيام بمعنى العزم ومنه قول الله تعالى: ﴿وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ (الجن: 19)، ومعنى المحافظة والإصلاح كقوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ (النساء: 34)، أما القوام فهو العدل وحسن القول والاستقامة والكمال. كما تدل كلمة قيمة على الثمن الذي يقاوم المتاع أو يقوم مقامه وجمعها قيم ويقال ما له قيمة إذا لم يقم على شيء[1].

وكان وصف الإنسان أيضا أو الشيء أو العمل أو الدين بكونه قيما أي مستقيما، فالإنسان القيم هو المستقيم، والديانة القيمة هي الديانة المستقيمة كقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ (البينة: 3) ﴿وذلك دين القيمة﴾ (البينة: 5)، ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ (الأنعام: 162-163).

هذه المعاني مثل الاستقامة والثبات والاعتدال وبلوغ الغاية تدل على الكمال لأنها صفات مستحسنة ومرتبطة بالإنسان توجد بوجوده وتنعدم بانعدامه، فهي المعيار التي تقاس به الأشياء، بينما يدل العكس على الرذائل والسيئ.

وهكذا تبدو لفظة القيمة تتأرجح بين ما هو إيجابي كالفضائل وحسن الخلق والصدق والأمانة وبين ما هو سلبي أو ما يعبر عنه بالنقائض والرذائل، وقد وردت كلمة القيمة من الفعل اللاتيني Value؛ بمعنى "أنا القوي" أو بصحة جيدة وهو معنى يتضمن فكرة المقاومة والصلابة والتأثير والفعالية وترك بصمات قوية على الأشياء[2].

ولما كانت القيمة الأخلاقية تهتم بالبحث عن الفضيلة التي تشير في المفهوم اللاتيني إلى المقاومة والصلابة أمام الأخطار، أصبحت الفضيلة مرادفة للشجاعة التي تأتي على رأس الفضائل

1. البستاني معلم بطرس، محيط المحيط (قاموس اللغة العربية) مكتبة لبنان، 1977، ص764.

2. John Laird: Two idea of Value. Cambridge 1929.intro.

الأخلاقية، وأصبحت الشجاعة تدل على قيمة الإنسان، وأصبح لزاما على المرء أن يتحلى بكثير من الشجاعة في مواجهته الدائمة للغواية والشر، وهو بهذا يؤكد دائما على أخص ما يتميز به من قيمة إنسانية تبوؤه مكانة مرموقة في المجتمع.

ومع مرور الزمن أصبحت القيمة تدل على معاني أخرى شاع استعمالها بين علماء اللغة وعلماء الرياضيات والفنانون وعلماء الاقتصاد وغيرهم.

فيرى علماء اللغة أن للكلمات قيمة نحوية تحدد معناها ودورها في الجملة وأن قيمة الألفاظ تكمن في الاستعمال الصحيح لها. ويستخدم علماء الرياضيات كلمة القيمة للدلالة على العدد الذي يقيس كمية معينة. أما الفنانون فإن القيمة الفنية عندهم تجمع بين الكم والكيف، وهي بهذا تعبر عن كيفية الألوان والأحداث والأشكال والعلاقة الكمية القائمة بينهما، ويهتم علماء الاقتصاد بقيمة المبادلة ويدلون بالقيمة على الصفة التي تجعل شيئا ممكن الاستبدال بشيء آخر؛ أي قيمة المبادلة[1].

يتضح من التعريفات المختلفة للقيمة valeur أن مفهومها من المفاهيم التي يشوبها نوع من الغموض والخلط في استخدامها، فقد اختلف الباحثون في وضع تعريف محدد جامع لها، وهذا الاختلاف يعزى بالدرجة الأولى إلى الموروثات الفكرية والدينية والمنطلقات النظرية والصيغة التخصصية التي لا تجعل الباحثين يتفقون بالضرورة على تفسير واحد للقيمة، فالاختلاف الرئيس يكمن في المؤشرات التي تدل على القيم، فبعض الباحثين يرى قيام هذه المؤشرات في دائرة الاتجاهات، وبعضهم يراها في دائرة الأنشطة السلوكية والبعض يراها قائمة في مركب بين الاتجاه والسلوك، والبعض يراها في التفسير المباشر بها، والبعض يرى أنها مرادفة للاتجاهات والاهتمامات ويعتبرها اتجاهات تقويمية، والبعض يرى أنها تفضيلات في حين أن أوجه الاتفاق تمتد لعناصر كثير منها وهكذا دواليك.

وقد عرفها "بري Barry" بأنها جملة من الاهتمامات فلا يكتسب الشيء قيمة في نظره إلا إذا كانت واضحة وظاهرة، ويعرفها Thorndik[2] بأنها تفضيلات بحيث يكون التفاضل قاعدة في

1. صلاح الدين بسيوني رسلان، القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، القاهرة: دار الثقافة، 1990 ص10.
- مرعي توفيق وبلقيس أحمد، الميسر في علم الاجتماعي، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط2، 1984 ص216-217.

2. ادوار لي تورندانك، عالم نفسي أمريكي من مواليد ويليمزبيرج، ولاية ماساشويتس، 31 غشت 1874م، وتوفي يوم 9

تمييز القيم التفضيلية من غيرها، ويعرفها بوجاردس Bogardie بأن القيمة مرادفة للاتجاهات، أما كلايد كلاهوم Clyde- Kluckhoom فيعرف القيمة بأنها أفكار حول ما هو مرغوب فيه وغير مرغوب فيه[1]. وهو نفس الاتجاه الذي سلكه سبينوزا في تعريفه بالقيمة الذي يقول: "نحن لا نرغب في شيء لأنه قيم، بل إنه قيم لأننا نرغب فيه". ووفقا لهذا التعريف تتوقف القيمة على القدرة على إثارة الرغبة.

وفي هذا السياق يقول الاقتصادي الكبير شارل جيد Charle Ghed في كتابه محاضرات في الاقتصاد السياسي "إن القيمة هي عملية إضاءة الأشياء بشعاع الرغبة الذي نسقطه عليها". وبهذا يتضح أن قيمة شيء من الأشياء تتوقف على إمكانية الرغبة فيه[2].

لكن هذا التعريف محل نظر، قد يرغب المرء في شيء ويتأثر به ويؤثر فيه مع كونه شيئا ضارا عديم القيمة، يرغب مدمن المخدرات في الحشيش مع أنه ضار به وعديم القيمة، وينصرف امرؤ عن تناول الدواء مع أنه مفيد له وعظيم القيمة، ولهذا فإن "الشيء القيم ليس ذلك الذي نرغب فيه في الواقع، بل المرغوب". وبهذا المعنى نفسه يعرف لوسن "Le Senne" القيمة كما يلي: "ما هو جدير بأن يطلب[3]. "إن القيمة ليست مجرد ما يرغب به في الواقع، ولكنها ما هو جدير بأن يرغب به على مستوى ما ينبغي أن يكون[4]."

والجدير بالملاحظة أن وضع تعريف جامع مانع للقيم صعب المنال وإن اتفق على أنها مقياس أو معيار يحكم بمقتضاه ونقيس به ونحدد على أساسه المرغوب فيه والمرغوب عنه سواء أكان هذا المقياس هو الإنسان أو المجتمع أو الله سبحانه وتعالى.

فالطرف الأساسي في الحكم عن القيمة هو الإنسان، وعليه فلا وجود لأي قيم في غياب الإنسان؛ فبدون الإنسان لا يمكن لها أن تفعل ولا حاجة إليها ولا أثر ينتج عنها، لذلك تختفي باختفائه، فالقيمة هي ظل الإنسان على الأرض، وهي كالحضارة تماما ما كانت توجد لولا موجدها

غشت 1949م، حاصل على دكتوراه في علم النفس، جامعة كولومبيا.

1. مرعي توفيق وبلقيس، م. س، ص216–217.

2. بول سيزاري القيمة، ترجمة، عادل عوا، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط1983،1م، ص6.

3. Le Senne: Traité Morale P.693.

4. يوسف كومبز القيمة والحرية: ترجمة عادل عوا، دمشق: دار الفكر، ط 1975 ص35.

الإنسان وعندما أوجد الحضارة بدأ فرزها للقيم.

إذن، فالقيم أولا هي علاقة تقوم بين الإنسان وبين الكون من حوله علاقته بالأشياء مثلا، فهو من يستطيع أن يحكم على اللوحة الفنية بالجمال من عدمه، وعلاقته أيضا بالأفعال، كالتصدق على الفقراء والمساكين أو المشاركة في عمليات البر والإحسان، أو تعريفه لفعل الزنا وتقبيحه كقيمة مرفوضة بحسبانه فعل اعتداء، كذلك السرقة والرشوة والاختلاس بحسبانها أفعالا مخلة بقيمة الشرف، والقيم توجد فقط داخل الإنسان فتوجهه ليختار بين السهر تهجدا في بيت الله الحرام، وبين السهر في ملهى ليلي يبيع نفسه للأوهام، فتعامل الإنسان مع محيطه من أشياء وأفعال هو ما يؤدي لظهور القيم.

فالقيم هي أهداف للإنسان ونهايات لسلوكه ومحطة وصول أمانيه ورغباته في علاقته مع بيئته ومجتمعه ليعيش آمنا سعيدا، فإن لم تظهر تلك القيم لظل الإنسان كبقية حيوانات الأرض، ومع تطور الإنسانية على الأرض تطور سلم الإنسان القيمي، وكأن ظهور القيم الأولى هو بداية لمرحلة رفض التقهقر إلى الوراء لأنها تفتح أمامه آمال الانتقال لمراحل جديدة أكثر تقدما ورقيا لقيم جديدة.

وعليه فإن القيمة هي ناتج تقييم الإنسان للتفاعل بينه وبين مشاعره وأحاسيسه وبين العالم من حوله، فيصدر الطرف العاقل في المعادلة حكما قيميا، ويكون الشعور أو الفعل أو الشيء خيرا أو شرا بما يترتب عليه من لذة ومصلحة مرضية، أو أن يكون قيمة موضوعية تتعلق بالأشياء كالقيمة الاقتصادية السعرية التي نمنحها للأشياء، وأيضا تتشكل القيمة حسب مستوى الإنسان المعرفي، فلن يكون لليورانيوم من قبل قيمته اليوم الأمر الذي يعني أن الإنسان هو مكتشف القيمة وصانع قوانينها والحاكم بالخير وبالشر، بالنفع أو بالضرر.

ثانيا: في تشخيص أزمة القيم

إذا نظرنا إلى العالم الذي نعيش فيه، والإرهاصات الذي تداهمه، والتحولات الكبرى التي تعتريه، لنر ماذا حصل. كان هناك مجتمع أو عالم بشكل تام كل شيء فيه كان موجود وموحد بالمحيط الديني، وكان الدين فيه نقطة الارتكاز للفرد والمجتمع ككل. لكن فجأة اهتزت أركان هذا المجتمع ووقع فيه ما وقع، وتغيرت الأمور، وفقدت كل الإحداثيات الثقافية والأخلاقية والحضارية المرافقة لهذا العالم، وتأزمت الأوضاع وتفسخت القيم واختلط الصالح بالطالح، ونتج عن الضياع

الملازم لهذا فقدانا للشخص والمجتمع ككل. الكثير أصبح في حيرة من أمره يتساءل عما حدث من الضياع.

هكذا يبدو أن كل شيء من ذلك العالم قد انتهى، لهذا السبب هناك اشتياق وردود فعل لهذه النهاية، من هذه النهاية نشق طرق الميول المتطرفة والمتعصبة (الدينية – الأخلاقية – القومية – المجتمعية – الاقتصادية – الثقافية)؛ إذ أن هناك منحى للرجوع للثوابت الموحدة القوية والأخلاقيات الأصلية القديمة.

لكن المسيرة تستمر، ففي المجتمعات التي لحقها التغيير منذ عقود توجد تطورات مستمرة، فالذين كانوا في تلك الحقبة التاريخية وبسبب التطور الثقافي يجدون أنفسهم ضائعين لأن قيمهم موضوع أزمة قوية، يقود هذه الأزمة الحركات المختلفة التي لها شيء واحد مشترك وهو ما يمكن عنونته **بالبعد**، كل شيء أصبح له **بعد**؛ **بعد** السياسة، **بعد الدين**، **بعد الحداثة**، **بعد العولمة**... ليس هناك شيء ثابت.

فبعد السياسة، ساعد على إحداث شرخ كبير بين الأفراد والجماعات وتقسيمهم على أساس طائفي أو عرقي، يشيع الكراهية واستخدام العنف وانتشار الحكم الأوتوقراطي والفساد السياسي وانتهاك حقوق الإنسان، مما أضر ضررا بالغا بالأمة الإسلامية، **وبعد ديني** المؤدي إلى انتشار مظاهر التدين الخارجي أو السطحي وظهور الأحزاب والحركات الإسلامية... الخ، **وبعد الحداثة** أو التحرر، التي بدأت تعصف بمجتمعنا الإبداعي والفكري والثقافي الذي خلفه قرابة ثلاثين مليون مسلم في العصر العباسي أكثر ما ينتجه زهاء مليار نسمة في العالم الإسلامي. **وبعد عالمي أو عولمي** نسبة إلى العولمة، الذي ادخل الاقتصاد في الفساد وسوء التدبير[1].

هكذا يبدو للعيان أن الحقبة الحالية أنهت ليس فقط الثوابت الدينية بل أيضا، وبشكل تام، الثوابت العقلية للحداثة. لكن ثمة ثلاث قوى أساسية ساهمت بشكل مباشر في أزمة القيم الإسلامية التي أصبحت ظلا لما كانت عليه سابقا وهي الامبريالية الغربية، الحداثة، العولمة.

1. الإمبريالية الغربية وأثرها عل القيم الإسلامية

بدأت الحضارة الإسلامية تفقد عوامل قوتها وانهيار قيمها وانحلال أخلاقها جراء تكالب الدول الاستعمارية على العالم الإسلامي، مما أدى إلى تفكيك المؤسسات والقوانين و الاقتصاديات

1. علي علاوي، أزمة الحضارة الإسلامية، مطبعة جامعة بيل، ط1، 2009م.

الإسلامية واستبدالها بتشريعات مستوردة غير ملائمة، واختفاء أخلاقيات العمل مخلفة وراءها اقتصادا فاسدا، واختلال الأمن وضياع الحقوق وانتشار القطيعة بين أفراد المجتمع وضعف الشريعة في نفوس أهلها وانقلبت الموازين، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين. وفي هذا السياق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "سيأتي على الناس سنوات خداعة يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة قيل: ومن الرويبضة يا رسول الله. قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة[1]."

والمتأمل في أحوال الأمة الإسلامية يلاحظ ضعفا شديدا في الجانب الأخلاقي والتربوي نتيجة الإيديولوجيات الغربية التي تسلطها الإمبريالية الغربية بشكل منظم ومتواصل مستتر وغير مستتر، منذ نشأتها ضد الثقافات والديانات في العالم وضد الفكر الإنساني السليم عموما. وقد تمكنت خلال القرون والحقب التاريخية الماضية من أن تدمغ الشيء الكثير في الثقافات والديانات والأفكار الإنسانية بمفاهيمها وأفكارها الإباحية والإرهابية[2].

وهذا الموروث الذي تأثرت به عقول المسلمين يحشد أسلحته الفكرية ليدحض الدين والقيم باسم العلمية والتقدمية والعقلانية.

إن ما نشر من إساءات للرسول عليه الصلاة والسلام في الصحافة الدانمركية والنرويجية وما تبعها من نشر في الصحف الفرنسية وما تتضمنه من إساءات متنوعة ومتعددة ضد الديانات جميعها ومنها القيم الإسلامية المقتبسة من الدين الإسلامي الحنيف الذي يعبر عن محتواه الرسول، صلى الله عليه وسلم، سيد الأولين والآخرين في حديثه القائل: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، لدليل على تكالب الامبريالية الغربية على القيم الإسلامية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارمها.

لا غرابة في ذلك لمن يعرف ويدرك الأهداف التي ترتكز عليها مجمل نشاطات الامبريالية، لأن من أهم أهداف النظرية الرأسمالية ومنظريها طمس القيم الإسلامية والإنسانية. فالديانات

---

1. رواه أحمد.

2. أحمد قحطان جنيد، هدم القيم الإسلامية، مقال منشور بالشبكة العنكبوتية، بتاريخ 14-02-2011.

جميعها تدعو إلى السمو بإنسانية الإنسان وتسخير كل تقدم علمي لما يخدم ذلك وهذا لا يتناسب مع الأهداف الرأسمالية الإمبريالية الصهيونية التي تقوم عليها مصالح المالك المطلق والحاكم المطلق.

فعلينا، بل على الأمة الإسلامية كلها، أن لا تتعلق بأوهام وسراب الدعاية والإعلام الرأسمالي الذي يقلب الحقائق رأسا على عقب مستخدما الشمولية وكثافة الإعلام (الإرهاب الإعلامي المتناسق مع الإرهاب الاقتصادي والعسكري). إن تناقضات الرأسمالية بين القول والعمل في واقع الفعل الممارس في الحياة الاجتماعية أصبحت أكثر وضوحا في العقود الأخيرة للقرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، في سلوكياتها ومعاييرها في كل بقاع المعمور بما فيها تعدديتها وديمقراطياتها التي لا محتوى لها سوى الضجيج الإعلامي. مثل ديمقراطياتها ودستورها في العراق وأفغانستان ورؤيتها لذلك في فلسطين ولبنان كنماذج حية وأكثرها قربا للإيضاح.

2. الحداثة الغربية

ما يميز حقبة التغيرات التي بدأت تعصف بالقيم الدينية لمجتمعنا، والتي أصبحت حالة سائدة في كل العالم تقريبا هي موضوع الحداثة التي تتموضع فيما يسمى اليوم بالتحرر أو العصرنة، والمقصود بهذه الكلمة ليس المنهج السياسي المعروف، بل تلك الحالة التي جعلت من الحداثة الصنم المعبود.[1]

هذه الحالة قد خلقت مع هزيمة المعاني المشتركة للحقيقة وللخير العام وللتقليد؛ حيث إن هذه الحالة بينت نفسها أنها الحقيقة الواحدة المطلقة ضد أي إيديولوجية، وأخذت مجالا واسعا في كل مجالات الحياة المهم منها وغير المهم، المركزي منها والهامشي، وأحكمت قبضتها وأصبحت هي أساس الخريطة الإدراكية للإنسان الحديث وكثير من شعوب العالم الثالث خاصة نخبها الحاكمة.

والهدف من وجود هذه الظاهرة هو تحقيق النفع الشخصي، وتعظيم المتعة، وزيادة اللذة، وتجريد الإنسان من كل القيم الثابتة والراسخة، فالإنسان حسب منظور الحداثة إما إنسان اقتصادي أو إنسان جسماني أو خليط منهما، وهو في جميع الأحوال إنسان طبيعي/مادي لا علاقة له بالخير أو بالشر أو بأي قيمة تقع خارج نطاق الحواس الخمس.

1. إميل شمعون نونا، أزمة القيم في الحياة المعاصرة، مقال منشور بالشبكة المسيحية بتاريخ 14-06-2007.

وقد يشد انتباه المرء كثيرا ما تحمله هذه الظاهرة (الحداثة) من خطر داهم خاصة وإنها تعصف بالقيم الأخلاقية التي تربى عليها الفرد وتجرده من كل الأوصاف الحميدة التي يتحلى بها، فالإنسان إما قوي ومهيمن أو ضعيف ومهزوم، فالخير مطلق بالنسبة إليه أو الشر أيضا، وأن المنفعة التي يرجوها هي المنفعة المطلقة غير المستندة للقيم الأخلاقية التي تقف حائلا لتحقيق الرغبات والملذات التي يسعى من وراءها الحداثي.

يعد حب الذات، الدافع الأكبر للقيمة، عن نفسه في شكلين متناقضين؛ الأخلاقيات النيتشوية للأقوياء المنتصرين حيث تصبح إرادة (الداروينية- النيتشاوية) القيمة الأخلاقية المطلقة، بمعنى أن الكائن أصبح مرجعية ذاته، وأن أخلاقياته كامنة فيه نابعة منه،عائدة بالمنفعة أو اللذة أو البقاء[1].

أما بالنسبة للضعفاء المهزومين فأخلاقيات التكيف البرجماتية من نصيبهم، فهم أيضا يبحثون عن البقاء ولا يمكنهم تحقيقه إلا من خلال التكيف البرجماتي والإذعان للأمر الواقع فهذا الإذعان هو الذي يحقق مصالحهم.

من هذا المنطلق نجد أن بعض الحداثيين في المجتمعات العربية، قد تبنى هذا الطريق وصار يدافع عن بعض المعتقدات بشراسة ومنطق خال من القيم والأخلاق، والسؤال هنا: إلى أي مدى تغلغلت الحداثة في حياتنا؟ وهل ما نواجهه اليوم من انعدام الأخلاق والقيم هو ما يعبر عنه بالحداثة؟

3. العولمة

أما القوة الجبارة الثالثة التي استهوت الإنسان بمظاهرها المزيفة وجرت أخلاقيات العباد إلى الهاوية من حيث لا يشعرون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهي **ظاهرة العولمة**، ويفضي بنا هذا كله إلى السؤال التالي: هل تسببت ظاهرة العولمة في وقوع أزمة حقيقية للقيم؟ وكيف نتصور آثارها على الأسرة المعاصرة سواء كانت عربية أو مسلمة أو غير ذلك؟.

الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى تحليل وتفكير حول ظاهرة العولمة، وما عقد عنها من مؤتمرات و ندوات دولية.. بعد أن تحدث عنها الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فازداد معناها

1. عبد الوهاب المسيري، الحداثة والقيم والأخلاق مقال منشور بملتقى العلم الهادف بتاريخ 12-02-2011.

ومفهومها غموضا واختلاطا، وصارت محتاجة إلى اتفاق بين الباحثين وتوضيح حدود هذه الظاهرة التي يطلقون عليها هذا الاصطلاح.

فهي لا تقتصر اليوم على تعميم القيم الاقتصادية وأنظمتها التي من أجلها خلقت بل أخذت فعلا تعميم القيم الثقافية التي تشكل جوهر حياة المجتمع، وبخاصة القيم الدينية والأخلاقية منها. إذ أن القيم الأخلاقية والدينية وما تؤدي إليه من سلوك فردي واجتماعي هي الأرضية التي يرتكز عليها السلوك الاجتماعي وهو ما يمثل الحياة الثقافية في مجملها، باعتبار أن الثقافة هي الوسيلة أو المنظار لرؤية العالم والتعبير عنه.

فالثقافة التي تملك وسائل الاتصال القوية هي التي أخذت تهيمن اليوم عن طريق القنوات الفضائية والإنترنت فغزت الدور والبيوت. عملت على تنميط السلوك والذوق خاصة لدى الأطفال الذين لم تتكون لديهم ملكة النقد والحصانة الذاتية، فيقعون فريسة سهلة لما يعرض عليهم من صور مؤثرة وإباحية مطلقة، وأغاني ماجنة وأزياء غير محتشمة، وفرض أنماط قيمية ومحاولة جعلها واحدة لدى البشر في المأكل والملبس وغيرها من الأشياء المستوردة من قيم مجتمعات أجنبية غير مقبولة ولا لائقة في مجتمعاتنا الإسلامية، بما في ذلك التمرد على الأسرة وتفكيك علاقتها ونشر ما يتعارض مع مرجعياتنا وقيمنا التي لا تزال تقيم وزنا كبيرا لقيم العفة والاحتشام.

فالكلمة المؤثرة قديما اختفت وفقدت كثيرا من تأثيرها وحلت محلها الصورة التي لا يقف حاجز اللغة أمام تأثيرها فالذي لا يفهم اللغات الأجنبية يكتفي بالصورة المعبرة.

ربما أدى هذا الاكتساح للقيم، وهدم العلاقات الأسرية، والهجوم على المرجعيات والقيم الثقافية إلى رد فعل يتمثل في تفجير أزمة الهوية فيرجع الناس إلى التقاليد القديمة والعصبيات القبلية أو القومية الضيقة، التي تؤدي إلى سلوكيات ربما كانت أسوأ مثل التطهير العرقي، أو يحتمون بثقافتهم الأصلية بطريقة تؤدي إلى جمودها، وعدم تفتحها على الثقافات الأخرى، وقد نشاهد جماعة من المهاجرين الأتراك مثلا في ألمانيا يقتصرون على مشاهدة الأفلام التركية وهم مقيمون في ألمانيا، ينقلون هويتهم معهم ولا تتقطع الصلة بينهم وبين مجتمعهم الأصلي شأنهم في ذلك شأن الأكراد وباكستان مما يهدد السيادة الوطنية لبلد ما من البلدان، ويمزق وحدتها الثقافية السائدة، وعقيدتها الدينية.

وهذا التهديد الثقافي والديني قد يؤدي أيضا إلى فرار الناس إلى الدين، يلوذون به ويحتمون

بعقائدهم لدرجة التعصب والعنف والقتال؛ لأنهم يشعرون أنهم مهددون في أعز شيء عندهم. ولشدة خوفهم من الاستئصال والانسلاخ قسرا عن معتقداتهم الفكرية والدينية، لأن الصراع يسهل أن ينشأ عندما يشعر الإنسان أنه مهدد في جانب من ذاتيته[1].

ومما يؤخذ على العولمة والنظام العالمي الجديد، أنه يخلو من أي منهج أخلاقي. ولذلك لجأ الفرنسيون إلى وضع الثقافة في خانة الاستثناء؛ لأنهم تنبهوا إلى أن قوة الإنتاج الثقافي الأمريكي تؤدي إلى التغيير التدريجي في معايير السلوك وأنماط الحياة. بالإضافة إلى ذلك، فإن الحداثة الغربية أخفقت في مجال القيم الأخلاقية المبنية على المنفعة، أو على مجرد الرغبة أو مجرد العقل، وأبعدت القيم الأخلاقية عن العلم وعن الدين، وبذلك أصبحت العولمة في انفلات عن قيم تحكمها وعن ضوابط إنسانية تحدد سلوكها، ولذلك فإننا نرى فلاسفة الغرب، ممن يسمون بفلاسفة ما بعد الحداثة، يهاجمون العقل الذي تصورته الحداثة أنه هو الحل السحري لمشاكل الإنسان، وأن

---

1. لقد أنجزت دراسات ميدانية في مجال تأثير الأقمار الصناعية على القيم الثقافية ومنها الأخلاقية والدينية على عدد من البلدان الإسلامية كالسعودية واليمن والأردن ومصر وتونس، ومنها بلدان أخرى خارج العالم الإسلامي. من هذه الدراسات، دراسة ناصر الحميدي الذي لاحظ أن التأثير على الجوانب الأخلاقية يأتي في الدرجة الأولى مثل: الترويج والإباحية والاختلاط وما إلى ذلك مما يخالف القيم الإسلامية، والترويج للسلع الأجنبية وخاصة بين النساء والأطفال، وهذا من الجانب الاقتصادي، ثم على الجوانب العقدية والثقافية، التعليمية والسلوكية من التشتت بين ما يتعلمه المرء في المؤسسة التربوية، وما يشاهده من برامج مناقضة لذلك، وإغراء النساء بتقليد الأزياء الغربية وأدوات الزينة، وكذلك التأثير على الروابط الأسرية من جانب آخر. ومن الدراسات الميدانية التي تمت لمعرفة تأثير المواد التلفزيونية الأمريكية على الشباب الكوري الجنوبي دراسة قام بها Morgan و Kang خلصت إلى أن هذه المواد أدت إلى تأثير بالغ على القيم التقليدية الكورية، فأصبحت الفتيات الكوريات أكثر تحررا من القيم الأسرية والأخلاقية، ويعتقدون أنه لا حرج من الممارسة الجنسية خارج الزواج، وأن ذلك من قبيل الحرية الجنسية، وأصبحن يرتدين الملابس الأمريكية، ويحتقرن العقيدة الكونفوشيوسية.

أما الفتيان فقد كان الأمر على العكس، إذ أصبحوا أكثر محافظة على التقاليد الكورية وأكثر كراهية للولايات المتحدة، وبين الباحثان أن هذا التعارض قد يؤدي إلى رد فعل معاكس مناهض للثقافة الأجنبية. كما أن شبابا آخرين في استراليا أصبحوا يدمنون المخدرات هربا من واقعهم بالمقارنة مع الواقع الأمريكي الذي يشاهدونه، وأكثر عدوانية وميلا إلى العنف في معاملاتهم، ويرون العالم رؤية تجعله مليئا بالعنف والجريمة من كثرة مشاهدتهم لمواد التلفزة الأمريكية. وهذه النتائج تبين أن هذا التأثير يؤدي إلى فقدان الانتماء وإلى أزمة أخلاقية وإلى غربة ثقافية، كما يؤدي إلى وجود فئة من النخبة تعيش منقطعة الجذور وتزعم أنها قيادة فكرية، كما تبقى أخرى ذات ثقافة شعبية غريبة عن عصرها وعاجزة عن تجديد ثقافتها وتوسيع أفقها أخلاقيا ودينيا الأمر الذي يفجر صراعا اجتماعيا، يعوق المجتمع عن التخلص من التخلف، فعقول بعض المثقفين لا تعترف إلا بالنمط الغربي في الحياة والفكر، وعقول آخرين لا تعترف إلا بالتقاليد التي ربما فاتها الزمن، ولم تعد صالحة لعصرنا هذا، وينتج عن ذلك، أزمة نفسية أخلاقية وعدم استقرار نفسي، ويولد ذلك كله صراعا مريرا داخل المجتمع الواحد.

العلم هو مفتاح السعادة، انقطع عن القيم وانفلت منها ويعتبر هذا الانفلات من القيم الأخلاقية والدينية عندهم تحررا، فطالبوا بحرية الجنسية المثلية وغيرها من الموبقات.

إن العلماء اليوم يجب أن يطرحوا مسائل ذات صبغة أخلاقية وخاصة في مجال البيولوجيا والهندسة الوراثية، حيث نشهد تطورا سريعا سواء في مجال العلم النظري أو البحث الأساسي أو في مجال البحث التطبيقي، فمنذ أربعين عاما تقريبا كان أغلب الباحثين من العلماء يعتبرون القيم مسألة لا تعنيهم، وأصبح العلماء اليوم لا يستطيعون أن يتجنبوا البحث فيما يتعلق بنتائج أعمالهم العلمية، فيجب، إذن، الاعتراف بضرورة أن تحد سلطة التكنولوجيا بسلطة الأخلاق، كما صرح بذلك السيد افريدريك مايور المدير العام السابق لليونسكو وكما قال الكاتب الفرنسي فرانسوا رابلي[1] Rabelai "العلم بلا ضمير ليس إلا خراب للنفس" Science sans conscience n'est que ruine de l'ame فالعلماء الأمريكيون يتساءلون عن نوع الإنسان الذي يريدون إنتاجه، وأدت البحوث المتقدمة في البيولوجيا إلى محاولات التحكم الفيزيقي في العقل البشري وإلى محاولة التغيير الأساسي بشروط بداية وجود الإنسان ونهايته.

وإذا كانت انطلاقة الاستنساخ بداية في الفئران بهواي Hawai وفي الخرفان بنيوزلندا واليابان، وفي الماعز في الولايات المتحدة وكندا، فإن المجلة العلمية البريطانية The Lancet كتبت في سنة 1998م أنه بات من الضروري صنع كائنات بشرية عن طريق الاستنساخ، ودعت الأوساط الطبية إلى قبول ذلك وقام Paulin Jose أحد الكبار المهتمين بدراسة المخ البشري يقول: (ليست المشكلة الفلسفية الرئيسية اليوم هي: ما هو الإنسان؟ ولكن ما هو نوع الإنسان الذي يجب علينا إنتاجه؟) فأين كرامة الإنسان؟ وأين الشعور بالأخطار التي يمكن أن تحدث للجنس البشري والمفاجآت التي يمكن أن تؤدي إلى إنتاج أناس لا عهد للإنسانية بهم في التاريخ، مما ينحرف بالطبيعة البشرية إلى كائنات أخطر ما تكون وأكثر ما تكون، خروجا عن سمات هذا الكائن الذي نعرفه وهو الإنسان ذو الطابع الأخلاقي الفطري وذو الكرامة التي منحه الله سبحانه وتعالى إياها، في وجوده وفطرته الأخلاقية باعتباره غاية في ذاته لا أنه شيء من الأشياء أو وسيلة إلى غيره، يمكن أن يتلاعب بها المتلاعبون في مجال البيولوجيا أو العلم المنفلت من أي معيار أخلاقي أو قانوني أو ديني.

---

1. فرانسوا رابلي (1494-1553)، كاتب وروائي فرنسي وأحد أعلام الحركة الإنسانية في فرنسا، ولد في قرية لادوفنيير (la Deviniere) بالقرب من مدينة سينون (chinon) مقاطعة التورين.

والإسلام لا يضع حاجزاً ولا قيداً على حرية البحث العلمي، إذ هو من باب استكناه سنة الله في خلقه، ولكن الإسلام يقضي كذلك بأن لا يترك الباب مفتوحاً بدون ضوابط أمام دخول تطبيقات نتائج العلمية إلى الساحة العامة بغير أن تمر على مصفاة الشريعة، لتمرر المباح وتحجز الحرام، فلا يسمح بتنفيذ شيء لمجرد أنه قابل للتنفيذ، بل لابد أن يكون علماً نافعاً جالباً لمصالح العباد ودارئاً لمفاسدهم، ولابد أن يحافظ هذا العلم على كرامة الإنسان ومكانته والغاية التي خلقه الله من أجلها، فلا يتخذ حقلاً للتجريب، ولا يعتدي على ذاتية الفرد وخصوصيته وتميزه، ولا يؤدي إلى خلخلة الهيكل الاجتماعي المستقر، أو يعصف بأسس القرابات والأنساب وصلات الأرحام والهياكل الأسرية المتعارف عليها على مدى التاريخ الإنساني في ظلال شرع الله وعلى أساس وطيد من أحكامه، قال عز وجل: ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ (الرعد: 18)، وقال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تمنون. ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ (الواقعة: 61-65).

وقال سبحانه: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ (يس: 76-81).

وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (المومنون: 12-14).

ويتوقع من العولمة إذا تمكنت في سلطانها أن تمسخ الإنسانية، وأن تقولبها في نمط ثقافي يفقد ما في الحضارات الإنسانية وقيمها من غنى وتنوع، ونحن نشاهد كيف يشجع الغرب الذين يتحدون المسلمين في عقائدهم. فمن حق المسلمين أن تحترم عقائدهم كما تحترم عقائد غيرهم. إن النظم الأخلاقية والديانات تقع تحت تأثير العولمة اليوم فتقود إلى ضعف البنى الاجتماعية والأسرية فيصيبها الاضطراب والتفكك. إن جماعة من المفكرين في ماليزيا عارضوا القيم الغربية، ونظروا

إلى القيم الآسيوية على أنها بديل لهذه القيم الغربية، ومن هؤلاء إبراهيم أنور ومظفر شندرا، كما يمكن للأفارقة أن ينادوا بقيم أخرى لهم معارضة للعولمة الغربية، وقد حاول ذلك بولان هونتوندجي Paulin Houtondji في مقال له يدعو فيه إلى مقاومة العولمة الثانية ومن قبله فرانس فانون،1925-1960م الذي دعا إلى تصفية الثقافة الزنجية وغيرها من آثار الاستعمار وهو يعتبر من النخبة الإفريقية الآسيوية. إن الظلم الاقتصادي في العالم وراء كثير من التوترات التي تعاني منها الإنسانية وإذا كان عدد سكان البلدان النامية حوالي (4.5 مليار) فإن الثلث منها، على الأقل، لا يحصل على المياه الصالحة للشرب والخمس (5/1) من الأطفال لا يتمتع بالسعرات الحرارية الكافية ولا بالبروتينات الضرورية، بل إن مليارين من البشر؛ أي ثلث (3/1) الإنسانية يعاني من فقر الدم ويمكن القول بأن ما تستهلكه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من الروائح والعطور يكفي لسد حاجات التغذية الأساسية والصحة للسكان الفقراء في العالم، وذلك، حسب تقدير الخبراء، لا يتجاوز (13 مليار دولار) وهو المبلغ الذي تستهلكه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من العطور. وقد أشار تقرير البنك الدولي عن مؤشرات التنمية لعام 2001 إلى وجود 1200 مليون إنسان يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم وإلى 113 مليون طفل لا ينتظمون في المدارس، بينما ذكر تقرير البنك الدولي لعام 2000 أن ثروات أغنى 200 رجل في العالم تفوق دخل 41% من سكان المعمور[1]. هذا في الوقت الذي سيساوي فيه إنفاق الولايات المتحدة على التسلح لعام 2003 فقط 396 مليار دولار؛ أي كل ديون الدول الفقيرة. وربما هذا السبب بات النقد والاتهام يتحدث أيضا عن **"عولمة متوحشة"** وعن ضرورة الدعوة إلى **"عولمة إنسانية" "وعولمة أخلاقية"**.

يقول الأستاذ طه عبد الرحمن: إن العالم اليوم مقبل على تحول أخلاقي جذري بتأثير التحولات المتلاحقة التي يشهدها في الحياة الفردية والاجتماعية؛ لأن هذه التغييرات تفرز ضرورة معايير أخلاقية جديدة، ويأمل أن يتجه قادة العالم إلى إيجاد نظام أخلاقي عالمي جديد كما وضعوا نظاما تجاريا عالميا، حتى لا تنحرف العولمة إلى الظلم والعدوان على الأمم الضعيفة اقتصاديا وحضاريا. وبما أن الإسلام يتجه نحو العالمية منذ نزوله، ويحث على التعايش والسلم، وعايش فعلا في تاريخه مختلف الديانات وتسامح معها تسامحا واضحا فإنه مؤهل بتعاليمه الأخلاقية أن يشارك في وضع أخلاق جديدة لهذه العولمة المنفلتة لحد الآن، ﴿قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

1. راجع تقرير البنك الدولي عن مؤشرات التنمية لسنة 2001.

سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (ءال عمران: 63)، فعلى المسلم اليوم أن يحدد رسالته نحو العولمة ويبني موقفه على الفهم الصحيح للإسلام وأن ميزانه ميزان أخلاقي (التقوى) حين يتحاور ويتعاون مع البشرية في العالم إذ ألغى ميزان العصبية واللون والطبقة والثروة وجعل عمارة الكون والإحسان إلى العالمين من مبادئه ومقاصده، وكذلك المشاركة في توفير الخير للناس وحفظ الحقوق، ومنع الظلم وإن كان مع عدو أو مخالف في الدين: ﴿يأيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون﴾ (المائدة: 9). فهذا المعنى الأخلاقي القرآني إذا راعيناه فإن العولمة لا تصبح غابة يأكل القوي فيها الضعيف، ولا تمحو الثقافة التي أتيحت لها عوامل القوة ثقافة الآخرين وقيمهم.

ثالثا: أزمة القيم وضرورة العودة إلى الدين

تلعب القيم دورا حيويا وأساسيا في حياة الإنسان؛ لأنها موجهة لسلوكه ورغباته ومحققة لأغراضه، وطالما وجدت قيم وأصبحت شائعة في الأنشطة اليومية فقد صارت تمثل شريعة الحياة في المجتمع ومؤشرا إلى أن سلوك الإنسان مرتبط بهذه القيم ولا يستطيع أن ينفك عليها.

ولقد أصبح الاهتمام بالقيم الدينية في العصر الحالي أمرا ضروريا دعت إليه الحاجة، خاصة وما نلاحظه في الظروف الراهنة من تشوهات السلوك الإنساني المعاصر وترجيح القيم الفردية والمادية، واضمحلال القيم الروحية والجمالية، وطغيان المادة على الروح، وتخلي الفرد عن قيمه أو بعضها في مقابل المادة مما أدى إلى تفكك المجتمع وعدم رقيه والنهوض به؛ لأن واقعنا اليوم يعرف بعصر الفساد والمفسدين بامتياز، تكاثر فيه المفسدون وظهرت فيه أنواع الفساد وأشكاله، وأمكنته ودعاة الحداثة وحماتها، وبغاة العولمة ومروجيها، فأصبحنا نرى طوفانا من القيم الفاسدة ولا أحد يستطيع أن يتنكر لهذه الحقيقة وصدق قول الله عز وجل: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم: 40).

وأمام أمواج الفساد العارمة التي خيمت على المجتمعات العربية والإسلامية تضايق الناس من ويلاتها، تعددت دعاوى الإصلاح لكنها جاءت مخيبة للآمال ودون التطلعات بسبب بعدها عن الإسلام ومنهجه في الإصلاح، ولقد جربت المجتمعات الإسلامية مجموعة من النظريات وعاشت

كثيرا من التجارب ومحاولات الإصلاح المستوحاة من أهواء الناس؛ فرغم بعض التقدم المادي الذي أحرزته أحيانا يبقى الفشل والمعاناة في الجوانب النفسية والأخلاقية والاجتماعية والروحية، ولم تحصل على الاطمئنان المنشود والآمال المعقودة.

وفي العصر الذي نعيش فيه، وأمام كثرة ما يلاحظ ويشاهد بالعين المجردة من أبخس وأرذل البرامج التلفزيونية المستوردة من الجهات الغربية وعبر الأقمار الاصطناعية والشبكات العنكبوتية (الإنترنت)، وكذا الوسائل السمعية البصرية التي غزت البيوت والدور وجعلت الناس سكارى وما هم بسكارى، سئموا ونفضوا أيديهم من الذين يدعون بالحداثيين، وقطعوا منهم رجاءهم وفقدوا الثقة فيهم بعد فشلهم، وأخذوا يبحثون عن سبل أخرى تقيهم من شرهم ليخلصوا من أزماتهم. فما هي صفات وبرامج المصلحين الحقيقيين القادرين على تغيير الواقع وكنس دنس المدنسين وتطهير المجتمع من فساد المفسدين؟ وأمام هذه الأزمات المتلاحقة في العالم الإسلامي والعربي؛ (أزمة اقتصادية، اجتماعية، أخلاقية، دينية، بيئية، صحية، تعليمية)، وانعدام الثقة بين الأمم والدول وغيرها من الأزمات المتلاحقة والمتسارعة والتي تدل دلالة واضحة على أننا أضعنا بوصلتنا الأخلاقية ولم نعد قادرين على تحديد الاتجاه الصحيح، أصبحت العودة إلى الدين ضرورة ملحة باعتباره هو الحل الأمثل: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك: 15).

فالدين هو العدل: ﴿ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان﴾ (الرحمن: 5-6). والدين كان ولا يزال من عوامل تحريك سلوك الإنسان، ويعد من أقوى الركائز التي تقوم عليها أخلاق العباد وسلوكهم، فالابتعاد عن الدين ابتعاد عن القيم، والحال أن الثقافة نسق لا يستقيم بدون قيم وبدون دين أما الصراع الضمني بين هذه المكونات فأعتبره مفتعلا؛ لأنه يسعى فقط إلى تبرير مشروع العولمة القاضي بتأسيس منظومة قيم مشتركة وجماعية، على حساب دائرة الخاص والخصوصي، الذي يشكل عامل المناعة والصمود في وجه الصراع والصدام بين الثقافات، أو في أحسن الأحوال الحوار اللامتكافئ.

ينبغي الحذر من احتفاء الغرب العلماني بانعتاقه من الدين؛ لأن القراءة الموضوعية والمتأنية لنشأة المشروع العلماني بالغرب تثبت أن الغرب فشل في التعامل مع إشكالية الدين في ظل انتشار الديانات غير المسيحية مما يثبت أنه انعتق من المسيحية ليسقط في فخ الديانات الأخرى. لذا أعتبر العودة إلى الدين خيارا لا محيد عنه لتفادي تكرار الفشل ومواجهة نزعة تخريب القيم أو

أزمة القيم، وهي العلامة البارزة للعصر الذي نعيشه[1].

لكن ما المقصود بالعودة إلى الدين؟ العودة إلى الدين ليست نكوصا لنقطة الصفر، كما يزعم البعض، بل هي عودة للقاعدة المشتركة والجماعية التي لن تكون إلا هذا الدين لنجعل منه المنطلق والمرجع، ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن مشكلة القيم في القرن الحادي والعشرين تأتي من التعقيد الديني، فحتى الأمس القريب وحين كانت مسألة تأسيس القيم في منتهى البساطة على قاعدة: أعطى الله شرائع للبشر من أجل عمل الخير حينها لم نكن نسمع عن أزمة قيم.

فالامتثال للقيم واحترامها لم يكن يطرح مشكلة ملحة كما هو الحال الآن. والسبب هو تنامي الاستقلالية والمسؤولية الفردية، لأن الإلزام لم يعد يأتي من الله، ولا من الدين، ولا من الدولة، ولا من المجتمع، إنما من الفرد نفسه، هذه هي حصيلة الفردانية وقيم العولمة.

لقد أصبح هذا الإلزام غير ملزم، ولا يمكنه أن ينتج الإلزام، وعلى هذا الأساس ينبغي الوعي بأن ما هو إنساني ليس الفرد وحده، ولا المجتمع، ولا الجنس، إنما الثالوث المكون من تداخل هذه المفاهيم الثلاثة والتي تشكل جوهر الدين، لذلك قلنا وسنبقى نقول إن الدين نزعة إنسانية وأن العودة إلى الدين هي السلاح الوحيد الذي يضمن لأمتنا البقاء والاستمرار؛ لأن أصله طاهر وجذوره تستمد من القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما يقول الله عز وجل: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ (الأعراف: 170). ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (طه: 121-122)، ودستور المسلمين الخالد فيه شفاء لأمراض المجتمعات وحل لمشكلاتها.

كما قال علي كرم الله وجهه: "سيكون من بعدي فتن كقطع الليل المظلم قال وما المخرج منها يا رسول الله: "قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غير هذا أضله الله[2]."

ألا وإن الاعتماد على غير هذا الأمر يوسع رقعة الفساد ويعقد الأمور ويسبب الفوضى والاضطرابات ويقلب الحقائق فيصبح المفسد مصلحا، ويغدو الجاهل الذي يفسد مواطنا صالحا

1. الشبكة العنكبوتية، المفكر الإسلامي، موقع: الأستاذ محمد عمارة.

2. رواه الترمذي.

مؤمنا تقيا نقيا، رغم كونه مهمشا للدين في جل جوانب الحياة، مستضعفا لعباد الله الأتقياء حينذاك تضيع الأمانات، وتنتهك الأعراض وتبدد أموال الأمة وطاقاتها وثرواتها وتفسد قيم أبنائها، وتهدر كرامة الإنسان في ظل الحكم الجائر البعيد عن الإسلام وتعاليمه العادلة.

فالسبيل الوحيد لإنقاذ الأمة وإصلاح قيمها هو التمسك بشريعة الله الخالدة العادلة الصالحة في كل زمان ومكان المنزلة من خالق الإنسان الذي يعلم ما يصلح له وما يضره: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ (البقرة: 218).

ونعتقد في يقين أنه لن يتحقق لأمتنا صلاح ولا إصلاح ولن تحل مشكلاتنا في غياب دين الله عز وجل، وفي غياب المصلحين الحقيقيين الذين لا يفتح لهم مجال الإصلاح والتعبير عن آرائهم لخوف المفسدين على مصالحهم ولن تصلح أحوالنا إلا برجال أقوياء أشداء رحماء أمناء.كقول الإمام مالك رضي الله عنه: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"؛ (أي بالقرآن والسنة).

ولكي يتحقق الإصلاح إنقاذ الأمة من القيم الفاسدة لابد من توفر عدة شروط، ومن أهمها ما يلي:

1. صلاح من يقوم بمهمة الإصلاح

فصلاح القائمين لهذه المهمة، يجب أن يبتدئ بأنفسهم ونزاهتهم واستقامتهم على الحق ظاهرا وباطنا؛ إذ لا يتحقق إصلاح هذه القيم من أشخاص قلوبهم منطوية على الشر وجوانحهم تفور بالفساد والغدر، ونواياهم تفتل في حبل المكر، يكذبون على الناس للوصول إلى غاياتهم ويدوسون مصالح العامة لتحقيق أهدافهم ونيل مآربهم، لقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ (يونس: 81)، **وإن يكونوا مهتدين** بهدي القرآن متوكلين على الله راجعين إليه وإلى شرعه في كل حال، اقتداء بسيدنا شعيب، عليه السلام، زعيم المصلحين الذي قال: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود: 88). وأن يكونوا ساعين في مصالح العباد، قائمين على حقوق الناس بالعدل والقسط وتتجلى عليهم أخلاق الأمانة والعفة والإتقان والرحمة فيما يتولونه من مسؤوليات ومهام.

وعندما يوجد الإنسان الصالح المصلح ينشئ مجتمعا طيب القيم نقيا غير ملوث بعقد الغرب يسوده العدل والرحمة والأمن والعيش الرغيد والاستقرار، ويملأه الخير في كل جوانب الحياة،

ويتحقق التيسير الرشيد، ويحصل التغيير السديد، وتتبوأ الأمة منزلة الشهادة على الناس، وتحصل لها الريادة في كل مجال، وتنقذ المستضعفين من ظلم الظالمين وتأخذ بيد الحائرين التائهين إلى الطريق المستقيم وتقودها إلى سبيل الهدى والنور والسعادة والفوز في الدارين.

2. تقويم المنهج

وذلك باعتماد المنهج الإسلامي في تربية الناشئة وإصلاح سلوكها وتقويم اعوجاجها لإخراج المواطن الصالح في نفسه المصلح لما حوله، الكانس للفساد الذي خلفه المفسدون يملأ الأرض عدلا ورحمة وخيرا. ولا يتم هذا إلا إذا تغيرت نفوس الناس وينظرون ما يحيط بالأمة من تخريب للقيم الروحية والدينية سينقلب عليهم الأمر في يوم ما وسيؤدون فيه الثمن غاليا، فرقي الأمم تقاس بأخلاقها: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: 12). وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب[1]." وكل إصلاح لا يعتمد التربية الإيمانية والروحية والقلبية التي تحل في باطن الأفئدة طمأنينة الإيمان وسكينة الله والخوف من الله قبل كل شيء، فهو حومان حول الإصلاح دون ولوج لبابه وتضييع الوقت والجهد وإطالة عمر الفساد.

وبصفة عامة فان إصلاح القيم لا يحققه إلا ذوي النيات الحسنة والإيمان الراسخ الذين يعملون بنية أداء الواجب الديني ابتغاء لوجه الله وانتظارا للجزاء الأخروي قبل الأجر الدنيوي.

خاتمة

إن أمتنا اليوم، في أمس الحاجة إلى مفكرين صالحين صادقين نزهاء أتقياء، لهم حظ وافر من ميراث النبوة ليصلحوا أحوال الأمة ويغيروا واقعها المشهود إلى واقع منشود، إن أرادوا الخروج من أزمتهم الأخلاقية والاجتماعية والتربوية، أن يحركوا الراكد ويبثوا الوعي في نفوس المغيبين، ويلتزموا بالمحاورة مع الآخر على أساس نبل الهدف وسلامة المقصد وتحقيق صلاح الإنسانية جمعاء وإيصال دعوة الله إلى من يجهلها بالتي هي أحسن والقيام بالوظيفة أحسن قيام، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: 97).

1. رواه البخاري ومسلم.